الدليل التاسع
الحضارة والقرآن

استطاع القرآن أن يضع حجر الأساس ليبدأ بتشييد الحضارة العالمية وأرسى قواعدها في الجزيرة العربية بفترة لا تزيد عن خمس وعشرين سنة ، واستتب الأمن بعد فوضى وتجمعت القوى العربية المبعثرة المتناحرة ، كل ذلك تم بفضل الرسالة التي تكاملت في القرآن . .

وما أجمل الوصف الذي جاء به جعفر بن أبي طالب مخاطباً ملك الحبشة وشارحاً له وضع الجزيرة العربية قبل بعثة الرسول وبعدها موضحاً له المبادئ التي جاء بها محمد ﷺ عن ربه والتي لا محيد للإنسان عنها إذا أراد تشييد الحضارة الجديدة . . فقال :

أيها الملك : كنا قوماً أهل جاهلية نعبد الأصنام ، ونأكل الميتة ونأتي الفواحش ونقطع الأرحام ونسيء الجوار ، ويأكل القوي منا الضعيف ، فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولاً منا ، نعرف نسبه ، وصدقه وأمانته ، وعفافه ، فدعانا إلى الله لنوحده ، ونعبده ونخلع ، ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان وأمرنا بصدق الحديث وأداء الأمانة وصلة الرحم ، وحسن

الجوار ، والكف عن المحارم والدماء ، ونهانا عن الفواحش وقول الزور وأكل مال اليتيم وقذف المحصنات وأمرنا أن نعبد الله وحده لا نشرك به شيئاً ، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام . . فصدقناه وآمنا به واتبعناه على ما جاء به من الله فعبدنا الله وحده فلم نشرك به شيئاً وحرمنا ما حرم علينا وأحللنا ما أحل لنا ، فعدا علينا قومنا فعذبونا وفتنونا عن ديننا ليردونا إلى عبادة الأوثان من عبادة الله تعالى وأن نستحل ما كنا نستحل من الخبائث فلما قهرونا وظلمونا وضيقوا علينا وحالوا بيننا وبين ديننا خرجنا إلى بلادك واخترناك على من سواك ورغبنا في جوارك ورجونا أن لا نظلم عندك أيها الملك[1] .

والحقيقة تقال بأن أكبر معجزة تاريخية لرسول الله ﷺ هي التي بقيت إلى اليوم معضلة في تاريخ العالم ، وهي تأليف العرب على تعاديهم وتنافرهم ، والزحف بهم على قلتهم وضعف وسائلهم ، وتوثبهم على فقرهم وغنى سواهم حتى اكتسحوا دولة الفرس وقيضوا مملكة الروم ، وهما يومئذ الدنيا القديمة ، وهما العينان في رأس التاريخ . وقد توافقت جيوشهما والتحمت في مواطن القتال ، وسعروا الأرض ناراً وحرباً مدة ثلاثة قرون أو حول ذلك . . ولا شك أن كل هذا لم يتم إلا بالوسائل الحضارية التي

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ص٣٣٦ .

بثها القرآن في جانب آياته ، فلولا هذا القرآن لم تثبت في النفوس هذه القوة المعنوية الرائعة ولما كان لمحمد ﷺ أن يغير وجه التاريخ ولذا قال القرآن له :

﴿ لو أنفقت ما في الأرض جميعاً ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم إن الله عزيز حكيم ﴾ [الأنفال : ٦٣] .

ولا يمكن للحضارة أن ترفع أسسها إلا بالتعاون بين أبناء الأمة التي تريد أن تشيد لنفسها حضارة ، وقد ظهرت معالم التعاون والألفة حتى صار تاريخ الأرض يومئذ عربياً ، وصار بعد الذلة والمسكنة أبياً . . واستوثق للمسلمين من الأمر ما لم ترو الأيام مثل خبره لغير هؤلاء العرب ، حتى كأنما زويت لهم جوانب الأرض ، وكأنما كانوا حاسبين يمسحونها ، لا غزاة يفتحونها ، فلا يبدأ السيف حساب جهة من جهاتها حتى تراه قد بلغ بالتحقيق آخره ، ولا عجب فقد فتحت القلوب للشريعة قبل فتحها بالسيف ودخل الناس في هذه العقيدة لأنها أرادت أن تحررهم من عبادة العباد إلى عبادة الله . .

وقال أحد المفكرين العرب وهو : لبيب الرياشي :

لقد أضرم الرسول ثورات في ثورة ، مفتتحاً فضاء واسعاً للعلم واحترام العلماء والعقل والعقلاء والفكر والمفكرين وبذا شيد نواة الحضارة ، وأقام لها ركنها الركين وقال الرسول ﷺ : العلماء

مصابيح الأرض وخلفاء الأنبياء . . وبهذا كان يداً كبرى في إقامة صرح الحضارة العالمية ، وهل تقام الحضارة إلى على العلم والعلماء والفكر والمفكرين . .

وإن عمل الرسول لكاف جد الكفاية لتخويله المكان الأسمى من التعظيم والإعجاب والثناء ، وأنى لإنسان أن يأتي بما جاء به دون عون من الله له . .

فلقد نقل قومه من الإيمان بالأصنام إلى الإيمان بالله ، ولم تكن أصناماً تزيد الإنسان ذوقاً وجمالاً ، بل كانت أصناماً شائهات كتعاويذ السحر التي تفسد الأذواق ، وتفسد العقول ، فنقلهم محمد ﷺ من عبادة الدمامة إلى عبادة الحق الأبدي الأعلى عبادة خالق الكون الذي لا خالق سواه . . ونقل العالم كله من ركود إلى حركة ، ومن فوضى إلى نظام، ومن مهانة حيوانية إلى كرامة إنسانية ، ولم ينقله هذه النقلة قبله ولا بعده أحد من أصحاب الدعوات حتى يومنا هذا . .

فلو لم يأت الرسول لتغيرت معالم الحضارة العالمية ، ولضاع تراث العالم القديم ، ولاستمرت حياة الغاب ، وبذا كانت بعثة محمد ﷺ طفرة تاريخية عجيبة أدهشت عقول المفكرين . . فقالت الكاتبة الألمانية الدكتورة زيغريد هونكة[1] :

---

(١) شمس العرب تسطع على الغرب ص٣٨٩ .

(إن هذه الطفرة العلمية الجبارة التي نهض بها أبناء الصحراء من العدم ، هي من أعجب النهضات العلمية الحقيقية في تاريخ الحقل البشري ، فسيادة أبناء الصحراء التي فرضوها على الشعوب ذات الثقافات القديمة وحيدة في نوعها ، وإن الإنسان ليقف حائراً أمام هذه المعجزة العقلية الجبارة التي يحار الإنسان في تحليلها وتكييفها[1] .

وقالت أيضاً : إن أوربا تدين للعرب وللحضارة العربية ، وإن الدين الإسلامي كبير جداً .

وبالفعل ، معضلة لا يمكن للعقل الإحاطة بها إلّا بالتسليم لعظمة هذه الشريعة ، فلقد استمد المسلمون من شريعتهم القدرة ، وتناولوا منها المفتاح الكبير ، وافتتحوا به العالم فأداروه في أقفال الأرض ، وبذا فتحت الدنيا لهم واستمروا في تشييد حضارة الإنسانية ، وقدموا للعالم مجموعة من القيم العليا ، وحافظوا على التراث الماضي ، وزادوه من عبقريتهم وبحثهم واطلاعهم . . وبذا يقول جوستاف لوبون في كتابه (حضارة العرب) . . يقول هذا الكلام مع تأسفه الشديد لانكسار العرب في معركة بواتيه : لو انتصر العرب في هذه المعركة لتقدمت الحضارة العالمية ثمانية قرون .

فقد كانت ثورة الإسلام على الماضي الممزق ، والضياع المميت لهي الثورة المنطلقة من أسس الحضارة التي لا بديل لها في

عالم الإنسانية ، ومن هذه الأسس ، كشف الظلم عن بني الإنسان ، ورفع لواء الحرية للإنسانية وهذا ما قاله الرسول الذي ذهب إلى رستم قائد جيش كسرى . . قال له :

« نحن أتينا لنبعد الناس عن عبادة العباد إلى عبادة الله »

وهذا ما قاله أيضاً الأب الروحاني الدكتور نقولا فياض : ولا يزال المجال فسيحاً للكلام عن الثورة الكبرى التي أثارها صاحب الرسالة الإسلامية على الظلم والعبودية ، وحب الأثرة والعادات الوثنية ، وإنها ثورة ظاهره بما علم فيها من الرحمة والعفو ، مقدسة لكونها سامية المنشأ ، نافعة بما احتوت من العلم وحب له ودفع إليه ، غنية بما أورثها من صبر الجهاد وقناعة النفس[1] .

ولنسمع ما يقوله العالم المسيحي المنصف لبيب الرياشي : ما أعظم الرسول الذي كون من قبائلهم العربية البدوية المتخاصمة الضارية المشركة الجاهلية الأمية الظالمة ، التي لم تكن شيئاً ، فكون منها أمة متحضرة متحدة وديعة ، قوية موحدة ، عالمة مجاهدة ، منصفة عادلة . . أصبحت كل شيء بثلاثين سنة[2] وهكذا كانت الحضارة الإسلامية متكاملة الجوانب ليست كالحضارة الغربية

---

(١) السوبرمان الأول العالمي .

(٢) المصدر نفسه ص٢٧ .

الحاضرة التي تمثل أرقى ما وصل إليه الإنسان ، من حياة مادية ولكنها قد قصرت على عنصري الروح والمادة وبذا وصلت بالإنسان إلى الذرورة لإسعاده ، بينما في تلك الحضارة قد ارتكزت سعادته ، لأن الحضارة هي مجموعة العوامل المساعدة للإنسان على ترقية نفسه من جميع الوجوه ، ولا تقتصر على اختراع الوسائل التي تنقص المجهود الجسدي فحسب . وتسمى إذا اقتصرت على الاختراع فقط آلية مساعدة على التطور فقط ، ولكن الحضارة هي التي تبنى من الداخل وتعنى من الخارج دون هدر لأحدهما . . والإنسان تتكامل إنسانيته بعواطفه وأحاسيسه وشعوره الضمني بالإضافة إلى تكوينه الفكري ومرتكزاته الاجتماعية . .

فالسعادة ضمنية ، والحب والإخاء والسرور والحزم كلها نابعة من الداخل وهذا ما شاهدناه في حضارة القرآن وعلى سبيل المثال نرى العناية في المادة :

﴿ ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل ﴾ .

﴿ قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة ﴾ [الأعراف : ٣٢] .

﴿ كلوا من طيبات ما رزقناكم ﴾ .

﴿ يا بني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد ﴾ [الأعراف : ٣١] .

وهناك عناية بالناحية النفسية نجدها واضحة في هذه الآيات :

﴿ قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها ﴾ .

﴿ ألا بذكر الله تطمئن القلوب ﴾ .

﴿ إنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور ﴾ .

﴿ فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ، ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقاً حرجاً كأنما يصَّعَّد في السماء ، كذلك يجعل الله الرجس على الذين لا يؤمنون ﴾ [الأنعام : ١٢٥] .

فلنعد إلى التاريخ لنرى تأثير القرآن في تغييره وتحويله أمة جاهلة غافلة شديدة التنافر والتدابر ، يضرب بعضها رقاب بعض ، وينهب بعضها أموال بعض فإذا هي تصبح أمة قد خلقت خلقاً جديداً ، فألفت النظام والأمن والعدل ، وطمحت إلى الرقي والحضارة ، وظفرت منها بحظ وافر ونشرت هذه الخصال كلها في أمم كثيرة في الأرض ثم مزجتها وجعلت منها أمة واحدة ، تتعاون على الخير والسلام ، وترقية الحضارة العالمية ، والقرآن وحده مصدر هذا كله فلولاه لظلت الأمة العربية على جهلها ، وغلظتها ،

وانقسامها ولطمع فيها غيرها من الأمم المتحضرة المجاورة آنذاك ، علماً بأن العرب لم يكن لديهم من مقومات الحضارة باع طويل ، ففي بداوتهم وظروفهم الجغرافية والاقتصادية والعلمية أسباب عميقية في ارتكاس حضارتهم وكل هذه الأمور لم تدع الفرصة الكافية لإنشاء حضارة . على الرغم من قيام حضارات سابقة في الجزيرة . واتصال العرب بالرومان والفرس ، وإن الانطلاقة التي شهدها المسلمون في إنشاء حضارتهم لا تقاس مع الماضي والحاضر ؛ وعملت على نقل أسسها إلى الأمم المتعاقبة ؛ حتى وصلت إلى أمم اليوم ، وبذا يقول بريفولت في كتاب بناء الإنسانية (إنه ليس ثمة ناحية واحدة من نواحي الازدهار الأوربي إلا يمكن إرجاع أصلها إلى مؤثرات الثقافة الإسلامية بصورة قاطعة . .) .

وكأن الله ألقى في رمال الجزيرة روح البحر وبعثها بأمره فكان النبي هو نقطة المد التي يفور البحر منها وكان المسلمون أمواجه التي غسلت بها الدنيا وبذا أرسوا قواعد الحضارة الإنسانية .

فعجباً من حضارة نشأت من عقيدة يشك بها بعضهم والشيء الأشد عجبا أن تستمر هذه الحضارة لحقبة طويلة من الزمن وتثبت كيانها ، وتعلن صوتها بلا منازع وبهذا يقول القرآن :

﴿ قل أرأيتم إن كان من عند الله ثم كفرتم به من أضل ممن هو في شقاق بعيد ﴾ [فصلت : ٥٢] .

وهذه حضارة العالم اليوم بغربه وشرقه ترتكز على خلفيات وضعية مختلفة ، فلم تستطع إيصال الإنسان إلى سعادته وهذا واقعنا العربي المتخلف الذي لم ير حضارته حتى الآن وهو يبتعد عن هذه الحضارة الأصيلة فنراه يعيش في مذلة وضياع وهذا ما صرح به أحد بناة الحضارة العربية الإسلامية عمر بن الخطاب رضي الله عنه :

(نحن قوم أعزنا الله بالإسلام ومهما نرد العزة بغيره يذللنا الله) .

فأمتنا العربية إذا لم ترتكز في انطلاقتها التحررية الحاضرة على أسس علمية روحية معاً فلن يكتب لها الثبات والتقدم . . . وما بدأت أمة في طريق ما إلا بعد ارتكازها على نقاط القوى الخاصة بها ، وحين أخص السمات العربية والشرقية عامة بالروح والتراث الإسلامي ، فإن تخلت عنهما تخلت عن نفسها وبدأت من العدم ، وسلكت درب المحال والضياع . . .

ولن تصل إلى مقومات الحضارة الأصلية . .